الجزء العشرون — المجلد الرابع

المنار

١٣١٥

بشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب

يؤيد الحكمة من نقاء دين بخلوصه من شوائب الخرافات ومن سلطان المدنية بما هو خير لها في كل العصور

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق)

(مصر في يوم الجمعة ١٦ رمضان سنة ١٣١٩ — ٢٧ دسمبر (ك ١) سنة ١٩٠١)

باب المقالات

(السياسة والساسة — من نحن ومن غيرنا)

« الرسالة الثانية »

سيقول الذين يرونني مغرماً بالحقائق بعد أن يسمعوا كلامي في الرسالة الاولى : أوأنت ايضاً راضٍ عن السياسة واهلها وضارب فيها بسهم ، ومشترك بها مع حزب ؟ وهل تقدر أن تحب الحقائق وتتحزب ؟ على سؤالهم بنيت هذه الرسالة الثانية :

لا تبحث عن ماضي الانسان الذي اوصله الى هذا الحاضر بل اكتفِ بمعرفة حالته الحاضرة

لا يفتح الانسان عينيه على شيء في هذا الوجود قبل الثدي الذي يدرُّ عليه اللبن ، ولا يعشق شيئاً من هذا الكون قبل المحسنة عليه بهذا الدر — لا تسل ما هو إدراك الانسان وكيف عشقه للاشياء فذلك مما لم يدرك بعدُ . ولكن صوِّر في ذهنك وليداً وطأوه حجر الأمّ ،

وغطاؤه ذراعاها ، وغذاؤه ما يفيض به ثدياها ، أول ما يناغي هتاف باسمها ، ودعاء لرحمتها ، من يكون معبوده غير معبودها وقد علمته اسمه أول ما تكلم ، واسناد كل شيء اليه أول ما ميز ، ومحبة حزبه وكراهية مناظريه وأعاديه أول ما ودعه حضانها ، واستقبله تدريبها ، وكيف لا يقبل ذهنه غراسها ومعها والده وجده ، وعمه وخاله ، وعمته وخالته ، والخوادم وأهل الحي اجمعون

أترى هذا الولد اذا كبر وترعرع ، وعظم ادراكه واتسع ، ينظر ما لم ينظر والداه في المعتقدات ؟ قل هيهات هيهات !

حدث التاريخ عن نفر من هذا القبيل ، ولكنهم قليل ، وهب انه رأى ما رأى فهل تخال انه يستطيع ان يظهر ، وأن يقول ويجهر : قل هيهات هيهات . حصل شيء من هذا فيما غبر ، ولكنه اقل وأندر . ثم هب انه ظهر ، وقال وجهر ، فمن تظن انه يستمع له ؟ والكل جازمون اي جزم ، ان ما ذهب اليه الآباء هو الحزم ، وخالفته نقص في المروءة والعزم . نعم كان شيء من هذا في القرون ولكنه ان أثمر على قلة فبعد موت الفارس . ومن ذا الذي يسمح ان يغضب ويهان على غرامه في حياته ، وينتظر ان يمدحه الدائسون عليه بعد مماته ؟

اذا فهم هذا من فهم فلا جناح علينا ان نقول : ان الانسان اذا كان عاقلا عارفاً فلم يعذر نفسه في هذه المداخل لا ينصف اذا هو لم يعذ غيره ممن لا عقل لهم كعقله ، ولا همة لهم كهمته ، بل الطامع ان يكون الناس كعقل رجل واحد ومسلكه لا يصح ان نسميه عاقلا عارفاً بعد ان قرأنا في سنن الوجود ناموس الاختلاف والتضاد الذي عرفناه رأس

ثابتاً وان لم نعرف حكمته حتى اليوم

والعاقل لا يملك نفسه من ان يتعجب كثيراً من الاغلاط وشيوعها ولكن تعجبه هو محل التعجب لأننا لم نر مبصراً يتعجب من اعمى ولا حياً من ميت ولا صحيحاً من مريض . وما هذا التعجب الا اثراً من نسيان هذا الناموس وتفرعاته

ثم هو ان تعجب أو لم يتعجب عائش في مجتمع فلا بد من ان يجد سبيلا معهم من للسكوت او الموافقة او المخالفة بالمعروف اذا رأى من زمانه دولة للبرهان . فهو في اي سبيل سلك محتاج للسياسة

افرض أمامك شخصين ينسب احدهما الى الفُرْس والآخر الى الروس أفرأيت ان قلتَ للفارسيّ هل تكره الروس الذين هم بشر مثلك ومثل قومك فقال لك لا فقلت له لمَ تحزب مع الفرس على الروس وهم امثال بعضهم عندك فقال لا استطيع التوفيق بين مصلحتيهما المختلفتين ، ولا بد لي من التحزب مع احد الفريقين ، ولا يرتاب احد ان الأولى بي ، تحزبي مع الذين منهم أمي وأبي ، وفيهم داري وعقاري ، وحليلتي وصغاري ، واعرف لغتهم ويعرفون لغتي ، وقضيت بينهم شطراً كبيراً من عمري . أتقول له هذا ينافي الحكمة والفلسفة ، ويباين حب السلام والفضيلة ، ويغاير العدل والحقيقة ؟ وأرأيت ان قلتَ له يمكنك ان تكون بينهم ولا تحزب معهم فجاك بأن الاجتماع يقتضي الاشتراك . أتقول له هذه القضية غير مسلمة وان اقام لك عليها البراهين وأورد الامثال ؟

ثم أرأيت ان قلت للروسي هل تكره الفُرْس فقال نعم . فقلت له لماذا فقال لانهم ليسوا على ديني . فقلت له فما دينهم إذن فقال لا اعلم

ولكن هكذا سمعت ابي وجدّي . أفتحاجُّه انت وتجادله بعد ما برهن منطقه على ان الانعام اعقل منه ؟ وهل الفارسيُّ اعقل منه اذا اجاب كما اجاب هذا وكان مذهبه التقليدي فيه مذهب هذا المقلد المسكين فيه ؟

بنو هذا النوع شأنهم في الاختلاف عجيب واعجب شيء ان اكثرهم لا يعلمون حقيقة المذهب الذي ينتسبون اليه فضلا عن مذهب المخالف فهم انما يقاتلون عن اسماء المذاهب لا عن حقيقتها وكنهها . . . وقد ضربت هذا المثل ليعلم كل واحد ان العقلاء الحكماء معذورون في التحزب فضلا عن الحمق والغافلين لان الشاذ في قومه الذي لا يرجو ان ينال نصيباً ماديًّا او ادبيًّا من فوزهم اذا فازوا لا يأمن ان يكون له نصيب من بأسائهم اذا غلبوا وقُهروا لان الخصم لا يميز بل أنصباء الفوز يُخص بها فريق دون آخرين ، واما انصباء البأساء فانها تتوزع على الكل ، وقد قيل من قديم : « الرحمة تخصص والبلاء يعم » هذا اذا ترك الشاذ وشأنه من قبل الجمهور وهيهات . على انه ليس مجهولا ان أولي العزم من الحكماء يحاربون الاغراض السافلة مهما حالت ، ويحاربون المقاصد السامية حيث وُجدت ، وتراهم يصبرون حتى يفوزوا وتحيي بهم السعادات العامة التي ما زالت تستفاد من ارشادهم او يقضوا كراماً مخلدين ذكراً في العالمين جميلاً مأسوفاً عليهم كثيراً

قلت ان اكثر بني هذا النوع الذين هم العوام وهم كل البشر الا قليلا لا يعلمون حقيقة المذهب الذي هم عليه . وبرهان هذا الكلام من اوضح الواضحات لمن استقرأ لانه صادر عن الحس والمشاهدة ونضرب نحن الامثال بالمسلمين الآن :

هؤلاء المسلمون فرق شتى يكفر بعضهم بعضاً وكلهم يقولون آمنا بأن النبي الذي اسمه محمد (عليه السلام) جاء من عند الله بكتاب اسمه القرآن ثم اكثرهم لا يعلمون ما هو ذلك الكتاب الذي جاء به لانهم إما اعاجم لا يعلمون ذلك الكتاب العربيّ وان تعلموا قراءة حروفه ، وإما اعراب أميون لا يقرأون الكتاب الا قليلا . واذا نظرت الى الفرق واحدةً واحدةً تجد الامر كذلك . . . هؤلاء العوام قاطبة تسأل احدهم ما مذهبك فيقول لك حنفي او شافعي او مالكي او حنبلي او . . او . . فاذا سألت الحنفي مثلا ما هو مذهب الحنفية تجده يقول لك لا اعرف وانما قد كان أبي حنفياً فصرت مثله . فهو إذن لا يعرف الا اسم المذهب وربما لا يعرف اسم الرجل الذي انتسب هذا المذهب لاسم بنته «حنيفة» ولقد بلغ الجهل ببعض العوام ان سألني : ايُّ شيء كان النبي (صلى الله عليه وسلم) أهو حنفي ام مالكي ام . . ام . . وما اظن ان امثال هذا السائل الجاهل قليلون ولا اتعجب من ذلك . وقلت يوماً لبدويّ من «عَنَزَة» مامذهبكم فقال لي لو سألت غيري لقال لك نحن موالك (يعني مالكية) ولكن الصحيح الذي عليه المعول لامذهب لنا ولا كتب عندنا وانما قد سمعنا ان المالكية لا يعتبرون الكلب نجساً فأحببنا هذا القول لان الكلاب تطوف على اوانينا كثيراً

ماتت الفرق الاسلامية التي اساس مذاهبها العلم فقط كفرق المعتزلة والجبرية المحضة مثلاً ولم يبق منها الا احاديث مذاهبها في كتب العقائد يجاوب اسماءها قراء هذه الكتب . اما الفرق التي اساسها اغراض سياسية فهي حية باقية والموجود منها اليوم هذه : (١) اهل السنة ومذاهب

هؤلاء وطرائقهم واختلافاتهم وعددهم اكثر من باقي الفرق لأنهم اخذوا من الكل وحشوه في كتبهم فكل مشتهٍ يجد فيها شهوته وسموا انفسهم على اختلافهم اهل السنة (٢) شيعة العجم والعراق (٣) شيعة اليمن والحجاز (٤) دروز وهم فرقة قليلة العدد بالنسبة لباقي الفرق (٥) نصيرية وهم اكثر من الدروز (٦) اسماعيلية وهم اقل منهما وهذه الفرق الثلاث متقاربة كلها باطنية . وربما اعترض المسلمون بعدّ هؤلاء معهم . اما نحن فنراعي الظاهر هنا (٧) اباضية (٨) وهابية .

سلني هل تعرف كل فرقة من هؤلاء حقيقة مذهب الثانية كلاً بل تلعن كل واحدة الاخرى من غير معرفة . واغرب ما في الباب جهل الذين انتحلوا لانفسهم اسم السنة بحقيقة الوهابية الذين هم دعاة الكتاب والسنة كما يعرفه كل مختبر احوالهم ومستمع اقوالهم

لا تنكر علينا التطويل بهذا فمنه استبانت لك حقائق مهمة نفيدك في هذا الموضع ومواضع اخر . ومنه تعرف عذرنا اذا بحثنا عن احوال الامم واحوال هذه الامة واحوال نفوسنا . سمّ هذا البحث بالسياسة او باسم آخر فقد عرفت أننا روّاد معانٍ لا روّاد ألفاظ

وهل علينا بعد هذا من حرج اذا قلنا نحن كذا وغيرنا كذا بعد الاعلان بأن الغيرية طبيعية وان لها احكاماً .

سيبقى في نفوس القراء شوق لمعرفة من نحن فنوصيهم ان لا يتعرفوا أنانيتنا (اي حقيقتنا) من اسماء اشخاصنا ولا من الاسماء التي ننتمي اليها فالذي تسميه امه سلطاناً مثلاً لا يجب ان يصير سلطاناً بالفعل بل عليهم ان يتعرفونا بما نقول ، وان يسألوا عنا ما لديهم من العقول ، فمن عرف الحق

بالرجال شطط ، ومن عرف الرجال بالحق بلغ المحط ،

على انه لا بأس ان نبين فى فهرست اجمالىّ من نحن ومن غيرنا ليكون كمؤنس لمن سأل عن سياستنا قبل سماع قضاياها :

(١) نحن بشر نرى ان الميزان فى درجات البشر العلم والعمل فمن كانت فى كفتهم العلوم النافعة ، والاعمال الرافعة ، كانوا اعلى ، وبسياسة الانام اولى ، ومن كانت فى كفتهم الجاهليات والاعمال الرديئة كانوا محتاجين للتعليم لئلا يطغوا فى الارض .

(٢) نحن اولو مصالح معاشية يهمنا ان تحميها سلطنة عادلة قوانينها ، موافقٌ رئيسها ،

(٣) نحن اهل مدن نرى حاجتها للمعارف واصلاح الاخلاق والعوائد

(٤) نحن جماعة متعاونون داعون الى الاصلاح وبه متذاكرون

والسلام على النظام العام ع . ز